بسم الله الرحمن الرحيم

«تَسْلِيَةُ الْمُصَابِينَ فِي الْمَغْرِبِ وَلِيبْيَا فِي الزَّلَازِلِ وَالْأَعَاصِيرِ وَالْفَيَضَانَاتِ» ٢٩ صَفَر ١٤٤٥هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنْ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ، نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ.

أَمَّا بَعْدُ:

لَقَدْ أَحْزَنَنَا مَا أُصِيبَ بِهِ إِخْوَانُنَا الْمُسْلِمُونَ فِي الْمَغْرِبِ وَلِيبْيَا مِنْ زِلْزَالٍ مُرَوِّعٍ، وَفَيَضَانٍ مُغْرِقٍ، وَإِعْصَارٍ مُدَمِّرٍ، لَقِيَ آلَافٌ مِنْ إِخْوَانِنَا فِيهِ حَتْفَهُمْ، وَلَكِنْ لَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي رَبَّنَا: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، «اللَّهُمَّ أْجُرْنَا فِي مُصِيبَتِنَا، وَأَخْلِفْ لَنَا خَيْرًا مِنْهَا»، وَمِمَّا يُسَلِّينَا وَأَهْلِيهِمْ أَنَّنَا نَحْسِبُهُمْ عِنْدَ اللهِ شُهَدَاءَ، أَخْرَجَ النَّسَائِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَتِيكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ جَاءَ يَعُودُ عَبْدَ اللهِ بْنَ ثَابِتٍ فَوَجَدَهُ قَدْ غُلِبَ عَلَيْهِ، فَصَاحَ بِهِ، فَلَمْ يُجِبْهُ فَاسْتَرْجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَقَالَ: «قَدْ غُلِبْنَا عَلَيْكَ أَبَا الرَّبِيعِ»، فَصِحْنَ النِّسَاءُ وَبَكَيْنَ، فَجَعَلَ ابْنُ عَتِيكٍ يُسَكِّتُهُنَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «دَعْهُنَّ فَإِذَا وَجَبَ فَلَا تَبْكِيَنَّ بَاكِيَةٌ»، قَالُوا: وَمَا الْوُجُوبُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «الْمَوْتُ»، قَالَتِ ابْنَتُهُ: إِنْ كُنْتُ لَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ شَهِيدًا، قَدْ كُنْتَ قَضَيْتَ جِهَازَكَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَإِنَّ اللهَ ﷻ قَدْ أَوْقَعَ أَجْرَهُ عَلَيْهِ عَلَىٰ قَدْرِ نِيَّتِهِ، وَمَا تَعُدُّونَ الشَّهَادَةَ؟» قَالُوا: الْقَتْلُ فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الشَّهَادَةُ سَبْعٌ سِوَىٰ الْقَتْلِ فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ: الْمَطْعُونُ شَهِيدٌ، وَالْمَبْطُونُ شَهِيدٌ، **وَالْغَرِيقُ شَهِيدٌ، وَصَاحِبُ الْهَدَمِ شَهِيدٌ**، وَصَاحِبُ ذَاتِ الْجَنْبِ شَهِيدٌ، وَصَاحِبُ الْحَرَقِ شَهِيدٌ، وَالْمَرْأَةُ تَمُوتُ بِجُمْعٍ شَهِيدَةٌ».

وَنُذَكِّرُ إِخْوَانَنَا فِي الْمَغْرِبِ وَلِيبْيَا بِأَنَّ هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا دَارُ ابْتِلَاءٍ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمَوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾، وَقَالَ ﷻ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾، وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَىٰ اللهِ يَسِيرٌ﴾، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿مَا أَصَابَ

مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي «تَفْسِيرِهِ»: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، أَيْ: وَمَنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ فَعَلِمَ أَنَّهَا بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ، فَصَبَرَ وَاحْتَسَبَ وَاسْتَسْلَمَ لِقَضَاءِ اللهِ، هَدَىٰ اللهُ قَلْبَهُ، وعَوَّضَهُ عَمَّا فَاتَهُ مِنَ الدُّنْيَا هُدًىٰ فِي قَلْبِهِ، وَيَقِينًا صَادِقًا، وَقَدْ يُخْلِفُ عَلَيْهِ مَا كَانَ أَخَذَ مِنْهُ، أَوْ خَيْرًا مِنْهُ. اهـ

أَخْرَجَ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ، عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: «الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ، يُبْتَلَىٰ الْعَبْدُ عَلَىٰ حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صُلْبًا، اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ، ابْتُلِيَ عَلَىٰ حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ، حَتَّىٰ يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَىٰ الْأَرْضِ، وَمَا عَلَيْهِ مِنْ خَطِيئَةٍ»، وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ صُهَيْبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ». **وَأَبْشِرُوا حَفِظَكُمُ اللهُ بِالْأَجْرِ الْعَظِيمِ، إِنْ صَبَرْتُمْ وَرَضِيتُمْ بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ**، أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ، وَلَا أَذًىٰ وَلَا غَمٍّ، حَتَّىٰ الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ». قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الْفَتْحِ» (١٠/ ١٠٦): قَوْلُهُ: «مِنْ نَصَبٍ» هُوَ التَّعَبُ.

وَقَوْلُهُ: «وَلَا وَصَبٍ» أَيْ مَرَضٌ، وَقِيلَ: هُوَ الْمَرَضُ اللَّازِمُ.

وَقَوْلُهُ: «وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ» هُمَا مِنْ أَمْرَاضِ الْبَاطِنِ.

وَقَوْلُهُ: «وَلَا أَذًىٰ» هُوَ أَعَمُّ مِمَّا تَقَدَّمَ، وَقِيلَ: هُوَ خَاصٌّ بِمَا يَلْحَقُ الشَّخْصَ مِنْ تَعَدِّي غَيْرِهِ عَلَيْهِ.

قَوْلُهُ: «وَلَا غَمٍّ» هُوَ أَيْضًا مِنْ أَمْرَاضِ الْبَاطِنِ، وَهُوَ مَا يُضَيِّقُ عَلَىٰ الْقَلْبِ.

وَقِيلَ: فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الثَّلَاثَةِ (وَهِيَ: الْهَمُّ وَالْغَمُّ وَالْحُزْنُ)، أَنَّ الْهَمَّ يَنْشَأُ عَنِ الْفِكْرِ فِيمَا يُتَوَقَّعُ حُصُولُهُ مِمَّا يُتَأَذَّىٰ بِهِ، وَالْغَمُّ كَرْبٌ يَحْدُثُ لِلْقَلْبِ بِسَبَبِ مَا حَصَلَ، وَالْحُزْنُ يَحْدُثُ لِفَقْدِ مَا يَشُقُّ عَلَىٰ الْمَرْءِ فَقْدُهُ، وَقِيلَ: الْهَمُّ وَالْغَمُّ بِمَعْنًىٰ وَاحِدٍ. اهـ

وَأَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ، وَحَسَّنَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «عِظَمُ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ»، وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللهُ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، «اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَخْلَفَ اللهُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا». فَأَبْشِرُوا بِالْخُلْفِ حَفِظَكُمُ اللهُ.

أَيُّهَا الْأُخْوَةُ: لَقَدْ صَارَ بَعْضُ النَّاسِ يَتَكَلَّفُ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ، حَيْثُ يَظُنُّ التَّعَارُضَ بَيْنَ مَعْرِفَةِ أَسْبَابِ الْآيَةِ وَبَيْنَ كَوْنِهَا مِمَّا يُخَوِّفُ اللهُ بِهَا عِبَادَهُ، وَهَذَا رُبَّمَا يُؤَدِّي إِلَىٰ نِسْبَةِ هَذِهِ الْآيَاتِ لِلْأَسْبَابِ دُونَ الْمُسَبِّبِ سُبْحَانَهُ، الْمُتَصَرِّفِ فِي مُلْكِهِ بِالْخَلْقِ وَالتَّدْبِيرِ، وَزَادَ الطِّينَ بِلَّةً تَسْمِيَةُ هَذِهِ الْآيَاتِ بِأَسْمَاءِ الْمَخْلُوقِينَ. وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾. قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «تَفْسِيرِهِ» (١٤/ ٦٣٨): عَنْ قَتَادَةَ، قَوْلُهُ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ وَإِنَّ اللهَ يُخَوِّفُ النَّاسَ بِمَا شَاءَ مِنْ آيَةٍ لَعَلَّهُمْ يَعْتَبِرُونَ، أَوْ يَذْكُرُونَ، أَوْ يَرْجِعُونَ، ذُكِرَ لَنَا أَنَّ الْكُوفَةَ رَجَفَتْ عَلَىٰ عَهْدِ ابْنِ مَسْعُودٍ، فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ رَبَّكُمْ يَسْتَعْتِبُكُمْ فَاعْتِبُوهُ.

قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي «مِفْتَاحِ دَارِ السَّعَادَةِ» (١/ ٣٤٠): اسْتِعْتَابُ اللهِ عَبْدَهُ أَنْ يَطْلُبَ مِنْهُ أَنْ يُعْتِبَهُ، أَيْ: يُزِيلُ عُتْبَهُ عَلَيْهِ بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَالْإِنَابَةِ، فَإِذَا أَنَابَ إِلَيْهِ رَفَعَ عَنْهُ عُتْبَهُ.

وَاعْلَمْ أَخِي رَحِمَكَ اللهُ أَنَّ الْخَوْفَ لَابُدَّ أَنْ يَكُونَ مَسْبُوقًا بِالشُّعُورِ وَالْعِلْمِ، قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي «مَدَارِجِ السَّالِكِينَ» (١/ ٥١١): وَالْخَوْفُ مَسْبُوقٌ بِالشُّعُورِ وَالْعِلْمِ، فَمُحَالٌ خَوْفُ الْإِنْسَانِ مِمَّا لَا شُعُورَ لَهُ بِهِ.

فَالْمُؤْمِنُونَ يَنْكَسِرُونَ وَيَذِلُّونَ لِرَبِّهِمْ، وَيَضُجُّونَ إِلَيْهِ بِالتَّضَرُّعِ وَالدُّعَاءِ، وَتَتَغَيَّرُ أَحْوَالُهُمْ إِلَىٰ خَيْرٍ، وَانْتِقَالٍ مِمَّا يُسْخِطُ اللهَ إِلَىٰ مَا يُرْضِيهِ، وَهَذَا مِنْ حِكْمَةِ إِحْدَاثِ اللهِ الْآيَاتِ لِعِبَادِهِ. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾.

لَقَدْ كَانَ كَثِيرٌ مِنَ السَّلَفِ يَعْلَمُونَ الْأَسْبَابَ الطَّبِيعِيَّةَ لِهَذِهِ الْآيَاتِ، وَمَا كَانَ ذَلِكَ حَائِلًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَعْرِفَةِ الْحِكْمَةِ مِنْ إِحْدَاثِهَا، غَيْرَ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فِي وَقْتِنَا لَمَّا عَلِمُوا بَعْضَ الْأَسْبَابِ الَّتِي يُجْرِيهَا الرَّبُّ سُبْحَانَهُ لِآيَاتِهِ، وَهِيَ بَعْضُ أَسْبَابِ حُصُولِ الْآيَةِ أَوِ احْتِمَالِ حُصُولِهَا تَرَكُوا رَبْطَ الْأَسْبَابِ بِمُسَبِّبِهَا.

وَالْأَسْبَابُ الَّتِي عَرَفَهَا هَؤُلَاءِ هِيَ أَنَّ الْكُسُوفَ يُحَدَّدُ وَقْتُهُ مُسْتَقْبَلًا، وَيَقَعُ كَمَا حُدِّدَ، وَالزَّلَازِلُ عَرَفُوا أَنَّ سَبَبَهَا أَبْخِرَةٌ فِي دَاخِلِ الْأَرْضِ مُتَحَجِّرَةٌ، فَتُرِيدُ الْخُرُوجَ، فَتَحْصُلُ الزَّلَازِلُ، وَالْأَعَاصِيرُ وَالْفَيَضَانَاتُ لَهَا أَوْقَاتٌ وَمَوَاسِمُ مَعْلُومَةٌ، وَبِمَا أَنَّ الْأَمْرَ كَذَلِكَ فَالْخَوْفُ وَالتَّخْوِيفُ بَعْدَ انْفِتَاحِ الْعُلُومِ، وَالتَّطَوُّرِ وَرُقِيِّ الْإِنْسَانِ لَا مَعْنَىٰ لَهُ، إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ لِلْإِنْسَانِ الْبِدَائِيِّ فِي عُصُورِ الظُّلُمَاتِ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَىٰ» (٣٥/ ١٣٩) بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ ذَلِكَ: فَذَكَرَ أَنَّ مِنْ حِكْمَةِ ذَلِكَ تَخْوِيفُ الْعِبَادِ، كَمَا يَكُونُ تَخْوِيفُهُمْ فِي سَائِرِ الْآيَاتِ: كَالرِّيَاحِ الشَّدِيدَةِ وَالزَّلَازِلِ وَالْجَدْبِ وَالْأَمْطَارِ الْمُتَوَاتِرَةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي قَدْ تَكُونُ عَذَابًا، كَمَا عَذَّبَ اللهُ أُمَمًا بِالرِّيحِ وَالصَّيْحَةِ وَالطُّوفَانِ، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾، وَقَالَ: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾. وَإِخْبَارُهُ بِأَنَّهُ يُخَوِّفُ عِبَادَهُ بِذَلِكَ يُبَيِّنُ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ سَبَبًا لِعَذَابٍ يَنْزِلُ، كَالرِّيَاحِ الْعَاصِفَةِ الشَّدِيدَةِ، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ إِذَا كَانَ اللهُ قَدْ جَعَلَ ذَلِكَ سَبَبًا لِمَا يَنْزِلُ فِي الْأَرْضِ.

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَيْضًا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَىٰ» (١/ ٥٨٥): وَأَمَّا الْمُتَفَلْسِفَةُ وَأَتْبَاعُهُمْ فَغَايَتُهُمْ أَنْ يَسْتَدِلُّوا بِمَا شَاهَدُوهُ مِنَ الْحِسِّيَّاتِ، وَلَا يَعْلَمُونَ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ، مِثْلُ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْبُخَارَ الْمُتَصَاعِدَ يَنْعَقِدُ سَحَابًا، وَأَنَّ السَّحَابَ إِذَا اصْطَكَّ حَدَثَ عَنْهُ صَوْتٌ وَنَحْوُ ذَلِكَ، لَكِنْ عِلْمُهُمْ بِهَذَا كَعِلْمِهِمْ بِأَنَّ الْمَنِيَّ يَصِيرُ فِي الرَّحِمِ، لَكِنْ مَا الْمُوجِبُ لِأَنْ يَكُونَ الْمَنِيُّ الْمُتَشَابِهُ الْأَجْزَاءِ تُخْلَقُ مِنْهُ هَذِهِ الْأَعْضَاءُ الْمُخْتَلِفَةُ، وَالْمَنَافِعُ الْمُخْتَلِفَةُ،

عَلَىٰ هَذَا التَّرْتِيبِ الْمُحْكَمِ الْمُتْقَنِ الَّذِي فِيهِ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالرَّحْمَةِ مَا بَهَرَ الْأَلْبَابَ؟!

وَقَالَ تِلْمِيذُهُ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مِفْتَاحِ دَارِ السَّعَادَةِ» (٣/ ١٢٧٩) فِي كَلَامٍ لَهُ نَفِيسٍ، يَضَعُ فِيهِ الطَّبِيعَةَ مَوْضِعَهَا الصَّحِيحَ، وَأَنَّ الرَّبَّ سُبْحَانَهُ يَتَصَرَّفُ فِيهَا، وَيُقَلِّبُ أَحْوَالَهَا، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: ثُمَّ قَدَّرَ تَعَالَىٰ أَشْيَاءَ أُخَرَ تُمَانِعُ هَذِهِ الْأَسْبَابَ عِنْدَ التَّصَادُمِ، وَتُدَافِعُهَا، وَتَقْهَرُ مُوجَبَهَا وَمُقْتَضَاهَا؛ لِيَظْهَرَ عَلَيْهَا أَثَرُ الْقَهْرِ وَالتَّسْخِيرِ وَالْعُبُودِيَّةِ، وَأَنَّهَا مُصَرَّفَةٌ مُدَبَّرَةٌ بِتَصْرِيفِ قَاهِرٍ قَادِرٍ كَيْفَ يَشَاءُ؛ لِيَدُلَّ عِبَادَهُ عَلَىٰ أَنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ الْفَعَّالُ لِمَا يُرِيدُ، الْمُدَبِّرُ لِخَلْقِهِ كَيْفَ يَشَاءُ، وَأَنَّ كُلَّ مَا فِي الْمَمْلَكَةِ الْإِلَهِيَّةِ طَوْعُ قُدْرَتِهِ، وَتَحْتَ مَشِيئَتِهِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ يَسْتَقِلُّ وَحْدَهُ بِالْفِعْلِ إِلَّا اللهُ.

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مِفْتَاحِ دَارِ السَّعَادَةِ» (٣/ ١٢٨٠): فَتَارَةً يَسْلُبُ سُبْحَانَهُ النَّارَ إِحْرَاقَهَا وَيَجْعَلُهَا بَرْدًا، كَمَا جَعَلَهَا عَلَىٰ خَلِيلِهِ بَرْدًا وَسَلَامًا، وَتَارَةً يُمْسِكُ بَيْنَ أَجْزَاءِ الْمَاءِ فَلَا يَتَلَاقَىٰ، كَمَا فَعَلَ بِالْبَحْرِ لِمُوسَىٰ وَقَوْمِهِ، وَتَارَةً يَشُقُّ الْأَجْرَامَ السَّمَاوِيَّةَ، كَمَا شَقَّ الْقَمَرَ لِخَاتَمِ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ، وَفَتَحَ السَّمَاءَ لِمَصْعَدِهِ وَعُرُوجِهِ، وَتَارَةً يَقْلِبُ الْجَمَادَ حَيَوَانًا، كَمَا قَلَبَ عَصَا مُوسَىٰ ثُعْبَانًا، وَتَارَةً يُغَيِّرُ هَذَا النِّظَامَ وَيُطْلِعُ الشَّمْسَ مِنْ مَغْرِبِهَا، كَمَا أَخْبَرَ بِهِ أَصْدَقُ خَلْقِهِ عَنْهُ.

فَإِذَا أَتَىٰ الْوَقْتُ الْمَعْلُومُ فَشَقَّ السَّمَوَاتِ وَفَطَرَهَا، وَنَثَرَ الْكَوَاكِبَ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ، وَنَسَفَ جِبَالَ الْعَالَمِ وَدَكَّهَا مَعَ الْأَرْضِ، وَكَوَّرَ شَمْسَ الْعَالَمِ وَقَمَرَهُ، وَرَأَىٰ ذَلِكَ الْخَلَائِقُ عَيَانًا، ظَهَرَ لِلْخَلَائِقِ كُلِّهِمْ صِدْقُهُ وَصِدْقُ رُسُلِهِ، وَعُمُومُ قُدْرَتِهِ وَكَمَالُهَا، وَأَنَّ الْعَالَمَ بِأَسْرِهِ مُنْقَادٌ لِمَشِيئَتِهِ، طَوْعُ قُدْرَتِهِ، لَا يَسْتَعْصِي عَلَيْهِ انْفِعَالُهُ لِمَا يَشَاءُ وَيُرِيدُهُ مِنْهُ، وَعَلِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ مِنَ الْفَلَاسِفَةِ وَالْمُنَجِّمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ، وَالسُّفَهَاءِ الَّذِينَ سَمَّوْا أَنْفُسَهُمُ الْحُكَمَاءَ أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ. اهـ

إِنَّ الْمُؤْمِنَ مَعَهُ فِي الدُّنْيَا كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ، وَرِثَهُ مِنْ نَبِيِّهِ ﷺ، يَقِيسُ بِهِ كُلَّ حَرَكَةٍ وَسُكُونٍ فِي هَذَا الْكَوْنِ، لَا سِيَّمَا هَذِهِ الْآيَاتُ الْعَظِيمَةُ، مِنَ الْكُسُوفِ وَالزَّلَازِلِ وَالْأَعَاصِيرِ وَغَيْرِهَا، وَهَذَا الْكَنْزُ هُوَ: (لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ). قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «شِفَاءِ الْعَلِيلِ» (ص:١١٢): فَإِنَّ الْعَالَمَ الْعُلْوِيَّ وَالسُّفْلِيَّ لَهُ تَحَوُّلُ

مِنْ حَالٍ إِلَىٰ حَالٍ [يَعْنِي مِنْ سُكُونٍ إِلَىٰ حَرَكَةٍ، وَمِنْ حَرَكَةٍ إِلَىٰ سُكُونٍ عَلَىٰ تَنَوُّعِ ذَلِكَ]، وَذَلِكَ التَّحَوُّلُ لَا يَقَعُ إِلَّا بِقُوَّةٍ يَقَعُ بِهَا التَّحَوُّلُ، فَكَذَلِكَ الْحَوْلُ، وَتِلْكَ الْقُوَّةُ قَائِمَةٌ بِاللهِ وَحْدَهُ، لَيْسَتْ بِالتَّحْوِيلِ، فَيَدْخُلُ فِي هَذَا كُلُّ حَرَكَةٍ فِي الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ وَكُلُّ قُوَّةٍ عَلَىٰ تِلْكَ الْحَرَكَةِ. اهـ

إِنَّ الْإِيمَانَ بِذَلِكَ يُخْرِجُكَ مِنْ الِالْتِفَاتِ إِلَىٰ الْأَسْبَابِ الْمَقْطُوعَةِ عَنِ الْفَاعِلِ سُبْحَانَهُ فِي كُلِّ حَرَكَةٍ وَسُكُونٍ فِي الْكَوْنِ، لَاسِيَّمَا الْآيَاتُ الْكُبْرَىٰ مِثْلُ: الْأَعَاصِيرِ وَالزَّلَازِلِ وَغَيْرِهَا، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ.

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ «شَرْحِ حَدِيثِ النُّزُولِ» (ص: ١٨٦): فَلَفْظُ الْحَوْلِ يَتَنَاوَلُ كُلَّ تَحَوُّلٍ مِنْ حَالٍ إِلَىٰ حَالٍ، وَالْقُوَّةُ هِيَ الْقُدْرَةُ عَلَىٰ ذَلِكَ التَّحَوُّلِ، فَدَلَّتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ الْعَظِيمَةُ عَلَىٰ أَنَّهُ لَيْسَ لِلْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ حَرَكَةٌ وَتَحَوُّلٌ مِنْ حَالٍ إِلَىٰ حَالٍ، وَلَا قُدْرَةٌ عَلَىٰ ذَلِكَ إِلَّا بِاللهِ.

وَقَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ «شِفَاءِ الْعَلِيلِ» (ص: ١٢) عَلَىٰ كَلِمَةِ (لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ): وَلَمَّا كَانَ الْكَنْزُ هُوَ الْمَالُ النَّفِيسُ الْمُجْتَمِعُ، الَّذِي يَخْفَىٰ عَلَىٰ أَكْثَرِ النَّاسِ، وَكَانَ هَذَا شَأْنُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، كَانَتْ كَنْزًا مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ، فَأُوتِيهَا النَّبِيُّ ﷺ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ، وَكَانَ قَائِلُهَا أَسْلَمَ وَاسْتَسْلَمَ لِمَنْ أَزِمَّةُ الْأُمُورِ بِيَدَيْهِ، وَفَوَّضَ أَمْرَهُ إِلَيْهِ. اهـ

وَهَذَا الْكَنْزُ الْعَظِيمُ يَعْقِدُ لَكَ مَعَاقِدَ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ الَّذِي هُوَ تَوْحِيدُ فِعْلِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ، وَمِلْكِيَّتُهُ، وَتَدْبِيرُهُ شَأْنَ مَمْلَكَتِهِ، كَمَا أَنَّ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) تَعْقِدُ لَكَ مَعَاقِدَ تَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ وَالْعُبُودِيَّةِ، الَّذِي هُوَ تَوْحِيدُ أَفْعَالِكَ، فَيَبْقَىٰ التَّوْحِيدُ الثَّالِثُ، وَهُوَ الَّذِي يَتَضَمَّنُ مَعْرِفَةَ اللهِ سُبْحَانَهُ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ وَصِفَاتِهِ الْعُلَىٰ.

إِنَّ مَنْ يَعْتَقِدُ اسْتِقْلَالَ الْأَسْبَابِ بِالتَّأْثِيرِ مُعَطِّلٌ، وَمَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ الِاسْتِقْلَالَ بِالتَّأْثِيرِ فِي الْكَوْنِ لَيْسَ إِلَّا لِقُدْرَةِ الْإِلَهِ ﷻ، لَكِنَّهُ لَا يَذْكُرُهُ وَلَا يَنْقَادُ لِطَاعَتِهِ فَهُوَ ضَالٌّ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَىٰ» (٣/ ٣٣٠، ٣٣١): وَأَمَّا كَيْفَ يَحْصُلُ الْيَقِينُ فَبِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ:

أَحَدُهَا: تَدَبُّرُ الْقُرْآنِ.

وَالثَّانِي: تَدَبُّرُ الْآيَاتِ الَّتِي يُحْدِثُهَا اللهُ فِي الْأَنْفُسِ وَالْآفَاقِ، الَّتِي تُبَيِّنُ أَنَّهُ حَقٌّ.

وَالثَّالِثُ: الْعَمَلُ بِمُوجِبِ الْعِلْمِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، وَالضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَىٰ الْقُرْآنِ. [يَعْنِي قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ ... فَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ يَرَىٰ الْآيَاتِ الْمَشْهُودَةَ لِيُبَيِّنَ صِدْقَ الْآيَاتِ الْمَسْمُوعَةِ، مَعَ أَنَّ شَهَادَتَهُ بِالْآيَاتِ الْمَسْمُوعَةِ كَافِيَةٌ. اهـ

وَإِلَىٰ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ نَسَبُوا هَذِهِ الْآيَاتِ لِلطَّبِيعَةِ أَقُولُ: قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي «مَدَارِجِ السَّالِكِينَ» (١/ ٤٤٣): وَالْعِظَةُ نَوْعَانِ: عِظَةٌ بِالْمَسْمُوعِ، وَعِظَةٌ بِالْمَشْهُودِ، فَالْعِظَةُ بِالْمَسْمُوعِ: الِانْتِفَاعُ بِمَا يَسْمَعُهُ مِنَ الْهُدَىٰ وَالرُّشْدِ، وَالنَّصَائِحِ الَّتِي جَاءَتْ عَلَىٰ لِسَانِ الرُّسُلِ، وَمَا أُوحِيَ إِلَيْهِمْ، وَكَذَلِكَ الِانْتِفَاعُ بِالْعِظَةِ مِنْ كُلِّ نَاصِحٍ وَمُرْشِدٍ فِي مَصَالِحِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا.

وَالْعِظَةُ بِالْمَشْهُودِ: الِانْتِفَاعُ بِمَا يَرَاهُ وَيَشْهَدُهُ فِي الْعَالَمِ مِنْ مَوَاقِعِ الْعِبَرِ، وَأَحْكَامِ الْقَدَرِ، وَمَجَارِيهِ، وَمَا يُشَاهِدُهُ مِنْ آيَاتِ اللهِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ صِدْقِ رُسُلِهِ. اهـ

فَهَذِهِ الزَّلَازِلُ وَالْأَعَاصِيرُ الَّتِي يُحْدِثُهَا اللهُ فِي الْكَوْنِ عِظَةٌ بِالْمَشْهُودِ، وَاعْتِبَارٌ لِمَنْ يَعْتَبِرُ.

وَلَقَدْ كَانَ السَّلَفُ تُفِيدُهُمُ الْآيَاتُ الرُّجُوعَ إِلَىٰ رَبِّهِمْ، وَالتَّوْبَةَ مِنْ ذُنُوبِهِمْ، وَسَأَذْكُرُ أَمْثَالًا لِهَذِهِ الْأَحْوَالِ، وَمَا الَّذِي يُؤَمِّنُنَا وَقَدْ تَعَدَّىٰ السَّيْلُ الزُّبَىٰ؟!.

وَسَأَنْقُلُ مِنْ دَوَاوِينِ الْإِسْلَامِ بَعْضَ مَا جَرَىٰ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْحَوَادِثِ الْمُدْهِشَةِ؛ لِئَلَّا نَظُنَّ أَنَّنَا فِي أَمَانٍ، وَالْمُرَادُ مِنْ ذَلِكَ الْعِبْرَةُ لِمَنْ يَعْتَبِرُ، وَالِازْدِجَارُ لِمَنْ يَزْدَجِرُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ أَنْ نَكُونَ مِمَّنْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

• **مِنْ أَحْدَاثِ سَنَةَ (تِسْعٍ وَسِتِّينَ هـ)**:

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الْبِدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ» (١١/ ٧١٩): قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: فِي هَذِهِ السَّنَةِ كَانَ الطَّاعُونُ

الْجَارِفُ بِالْبَصْرَةِ، وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي «الْمُنْتَظَمِ»: كَانَ فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَسِتِّينَ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّمَا كَانَ فِي سَنَةِ تِسْعٍ وَسِتِّينَ. وَهَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ الَّذِي ذَكَرَهُ شَيْخُنَا الذَّهَبِيُّ وَغَيْرُهُ، وَكَانَ مُعْظَمُ ذَلِكَ بِالْبَصْرَةِ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، فَمَاتَ فِي أَوَّلِ يَوْمٍ مِنْهُ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ سَبْعُونَ أَلْفًا، وَفِي الْيَوْمِ الثَّانِي مِنْهُ أَحَدٌ وَسَبْعُونَ أَلْفًا، وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ مِنْهُ ثَلَاثَةٌ وَسَبْعُونَ أَلْفًا، وَأَصْبَحَ النَّاسُ فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ مَوْتَىٰ إِلَّا قَلِيلًا مِنْ آحَادِ النَّاسِ، حَتَّىٰ ذُكِرَ أَنَّ أُمَّ الْأَمِيرِ بِهَا مَاتَتْ، فَلَمْ يُوجَدْ لَهَا مَنْ يَحْمِلُهَا، حَتَّىٰ اسْتَأْجَرُوا لَهَا أَرْبَعَةَ أَنْفُسٍ.

• **مِنْ أَحْدَاثِ سَنَةَ (ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ وَمِئَتَيْنِ هـ):**

قَالَ الْحَافِظُ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الْعِبَرِ فِي خَبَرِ مَنْ غَبَرَ» (١/ ٣٢٥): فِيهَا كَانَتِ الزَّلْزَلَةُ الْمَهُولَةُ بِدِمَشْقَ، دَامَتْ ثَلَاثَ سَاعَاتٍ، وَسَقَطَتِ الْجُدْرَانُ، وَهَرَبَ الْخَلْقُ إِلَىٰ الْمُصَلَّىٰ يَجْأَرُونَ إِلَىٰ اللهِ، وَمَاتَ عَدَدٌ كَبِيرٌ تَحْتَ الرَّدْمِ، وَامْتَدَّتْ إِلَىٰ أَنْطَاكِيَةَ، فَيُقَالُ: إِنَّهُ هَلَكَ مِنْ أَهْلِهَا عِشْرُونَ أَلْفًا، وَامْتَدَّتْ إِلَىٰ الْمَوْصِلِ، فَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ هَلَكَ بِهَا تَحْتَ الرَّدْمِ خَمْسُونَ أَلْفًا.

• **مِنْ أَحْدَاثِ سَنَةَ (اثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ وَمِئَتَيْنِ هـ):**

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الْبِدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ» (١٤/ ٤٧٠): وَفِي ذِي الْحِجَّةِ أَصَابَ أَهْلَ الرَّيِّ زَلْزَلَةٌ شَدِيدَةٌ جِدًّا، وَرَجْفَةٌ هَائِلَةٌ، تَهَدَّمَتْ مِنْهَا الدُّورُ، وَمَاتَ مِنْهَا خَلْقٌ كَثِيرٌ، وَخَرَجَ بَقِيَّةُ أَهْلِهَا إِلَىٰ الصَّحْرَاءِ.

مَا وَقَعَ فِي مَدِينَةِ دَرْنَةَ اللِّيبِيَّةِ:

وَادِي دَرْنَةَ يَبْلُغُ طُولُهُ (سِتُّونَ مِتْرًا)، وَيَتَّصِلُ بِأَوْدِيَةٍ أُخْرَىٰ فِي الْجَبَلِ الْأَخْضَرِ، وَبِهِ سَدَّانِ، أَحَدُهُمَا يَبْعُدُ عَنِ الْمَدِينَةِ (كِيلُو مِتْرًا وَاحِدٌ)، وَهُوَ سَدٌّ صَغِيرٌ وَيُعْرَفُ (بِسَدِّ الْبِلَادِ)، وَالْآخَرُ يَبْعُدُ (ثَلَاثَةَ عَشَرَ كِيلُو مِتْرًا)، وَهُوَ السَّدُّ الْكَبِيرُ، وَيُعْرَفُ (بِسَدِّ بُو مَنْصُورٍ)، تَمَّ إِنْشَاؤُهُمَا فِي أَوَاخِرِ السَّبْعِينِيَّاتِ مِنَ الْقَرْنِ الْمَاضِي، تَجَمَّعَتِ الْمِيَاهُ مِنَ الْأَوْدِيَةِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَبَلَغَتْ مِائَةً وَعَشَرَةَ مِلِّيمِتْرًا مُكَعَّبًا، وَفِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ لَيْلًا وَقَعَ مَا لَمْ يَكُنْ فِي الْحُسْبَانِ، انْهَارَ سَدُّ بُو مَنْصُورٍ، وَسَمِعَ النَّاسُ صَوْتَ انْفِجَارِ السَّدِّ، فَانْخَلَعَتْ قُلُوبُهُمْ، وَلَمْ يَدْرُوا مَا الْخَبَرُ، وَانْدَفَعَ السَّيْلُ شَمَالًا إِلَىٰ سَدِّ الْبِلَادِ، وَلَمْ يَصْمُدْ سَدُّ الْبِلَادِ إِلَّا بِمِقْدَارِ وُصُولِ الْمَاءِ إِلَيْهِ، فَاقْتَلَعَهُ وَسَوَّاهُ

بِالْأَرْضِ، وَانْدَفَعَ سَيْلٌ هَادِرٌ مِنَ الْمِيَاهِ، جَارِفًا مَعَهُ أَطْنَانًا مِنَ التُّرَابِ وَالصُّخُورِ وَالْأَشْجَارِ، يَزْحَفُ نَحْوَ الْمَدِينَةِ السَّاكِنَةِ الْوَادِعَةِ، وَاقْتَلَعَ الْمَاءُ أَعْمِدَةَ الْكَهْرُبَاءِ، فَانْقَطَعَ التَّيَّارُ الْكَهْرُبَائِيُّ عَنِ الْمَدِينَةِ، فَأَصْبَحَتْ فِي ظَلَامٍ دَامِسٍ، وَيَزْدَادُ الْخَوْفُ وَالرُّعْبُ فِي قُلُوبِ سَاكِنِي الْمَدِينَةِ، وَبَدَأَ الْمَاءُ يَدْفَعُ الْمَرْكَبَاتِ، ثُمَّ جَاءَتْ أَمْوَاجٌ عَاتِيَةٌ مِنَ الْمِيَاهِ بِارْتِفَاعِ (ثَلَاثِينَ مِتْرًا) تَقْرِيبًا، وَهُوَ أَعْلَىٰ بِمَرَّتَيْنِ مِنِ ارْتِفَاعِ أَمْوَاجِ تُسُونَامِي الَّذِي ضَرَبَ الْيَابَانَ سَنَةَ (إِحْدَىٰ عَشْرَةَ وَأَلْفَيْنِ م)، فَاقْتَلَعَتِ الْأَمْوَاجُ الْعَاتِيَةُ الْبُيُوتَ وَالْعِمَارَاتِ الضَّخْمَةَ، الَّتِي يَتَكَوَّنُ بَعْضُهَا مِنْ تِسْعَةِ طَوَابِقَ، وَحَطَّمَتْ خَمْسَةَ جُسُورٍ يَصِلُ ارْتِفَاعُ بَعْضِهَا خَمْسَةَ عَشَرَ مِتْرًا.

وَكَانَ عَرْضُ الْوَادِي مِنْ تِسْعَةٍ وَثَلَاثِينَ مِتْرًا إِلَىٰ مِائَةِ مِتْرٍ، فَصَارَ عَرْضُهُ الْيَوْمَ أَكْثَرَ مِنِ اثْنَيْنِ كِيلُو مِتْرًا.

إِنَّ مَا أَصَابَ مَدِينَةَ دَرْنَةَ يُجَلُّ عَنِ الْوَصْفِ، وَتَأَمَّلْ قَصَصَ النَّاجِينَ مِنْ هَذَا الطُّوفَانِ الْمُدَمِّرِ؛ فَإِنَّ فِيهِ عِبْرَةٌ لِكُلِّ مُعْتَبِرٍ، وَتَذْكِرَةٌ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْقِلَ وَيَتَذَكَّرَ.

قَالَ أَحَدُهُمْ: لَمَّا انْقَطَعَ التَّيَّارُ نَزَلْتُ إِلَىٰ أُمِّي، وَكَانَتْ تُقِيمُ فِي الطَّابَقِ الْأَرْضِيِّ، أَرَدْتُهَا أَنْ تَصْعَدَ مَعِي إِلَىٰ شَقَّتِي فِي الدَّوْرِ الثَّانِي؛ حَتَّىٰ لَا تَبْقَىٰ وَحْدَهَا فِي وَحْشَةِ الظُّلْمَةِ، وَنَزَلَ مَعِي أَخِي الَّذِي كَانَتْ شَقَّتُهُ مُقَابِلَ شَقَّتِي، فَأَبَتْ أَنْ تَصْعَدَ، وَبَيْنَا نَحْنُ عَلَىٰ هَذِهِ الْحَالِ إِذْ دَخَلَتْ عَلَيْنَا الْمِيَاهُ، فَأَخَذْتُ أُمِّي لِأُخْرِجَهَا مِنَ الْبَيْتِ، فَإِذَا بِالْمَاءِ يَأْتِينَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَصَارَ يَدْفَعُنِي أَنَا وَأُمِّي حَتَّىٰ رَمَانَا عَلَىٰ دَرَجٍ فِي بَيْتٍ مَهْجُورٍ، وَنَزَلْتُ فَوَجَدْتُ الْجُثَثَ تَطْفُو عَلَىٰ الْمَاءِ نِسَاءً وَرِجَالًا وَأَطْفَالًا، كَانَ الْمَشْهَدُ مُرَوِّعًا، وَمَهْمَا وَصَفْتُ فَإِنَّ الْوَاقِعَ أَشَدُّ، وَلَا يُمْكِنُ لِمَنْ لَمْ يَعِشْ مَا حَدَثَ أَنْ يَتَخَيَّلَ عِظَمَ الْأَمْرِ، وَقَدْ رَأَيْتُ لَمْحَةً مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَقَالَ آخَرُ بَعْدَ أَنْ حَكَىٰ قِصَّةَ نَجَاتِهِ: رَأَيْتُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُصَغَّرًا، وَهَذَا وَإِنْ كَانَ مُبَالَغَةً إِلَّا أَنَّهُ يَدُلُّ عَلَىٰ عِظَمِ الْخَطْبِ.

وَلَكَ أَنْ تَتَخَيَّلَ أَخِي الْكَرِيمُ الْمَاءَ يَأْخُذُ أَحَدَهُمْ مِنَ الطَّابَقِ الْأَرْضِيِّ وَيُخْرِجُهُ مِنْ بَيْتِهِ وَيُطَوِّحُ بِهِ فِي الطَّابَقِ الرَّابِعِ أَوِ الْخَامِسِ فِي عِمَارَةٍ أُخْرَىٰ، أَوْ كَيْفَ يَقْتَلِعُ عِمَارَاتٍ مِنْ تِسْعَةِ طَوَابِقَ بِمَنْ فِيهَا وَيُدَحْرِجُهَا كَالْكُرَةِ حَتَّىٰ يُلْقِيَهَا فِي الْيَمِّ؟ مَعَ عَشَرَاتٍ مِنَ الْمَرْكَبَاتِ، بَلْ مِئَاتٌ، وَأَطْنَانٍ مِنَ الصُّخُورِ مِنْ آلَافِ النَّاسِ.

بَلَغَ عَدَدُ الْقَتْلَىٰ أَحَدَ عَشَرَ أَلْفًا وَثَلَاثِمِائَةِ قَتِيلٍ بِحَسَبِ إِحْصَائِيَّةِ الْهِلَالِ الْأَحْمَرِ اللِّيبِيِّ، وَعَدَدُ الْمُهَجَّرِينَ إِلَىٰ أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ أَلْفًا، وَآلَافُ الْمَفْقُودِينَ.

وَقَدْ طَمَرَ هَذَا الْفَيَضَانُ قُرًى كَامِلَةً كَمَا حَدَثَ فِي قَرْيَةِ الْوَرْدِيَّةِ، وَأَحَلَّتْ أَضْرَارًا جَسِيمَةً فِي مُدُنٍ أُخْرَىٰ، كَالْبَيْضَاءِ، وَالْبَيَّاضَةِ، وَسُوسَةَ، وَشَحَّاتٍ، فَخَلَّفَتْ نَحْوَ مِائَةِ قَتِيلٍ.

فَلَا يَنْبَغِي أَنْ تَمُرَّ هَذِهِ الْآيَاتُ الْعِظَامُ وَالْمَصَائِبُ الْجِسَامُ عَلَىٰ الْعَاقِلِ دُونَ أَنْ يَسْتَخْلِصَ مِنْهَا الْعِبَرَ، وَيُجِيلَ فِيهَا الْفِكْرَ، وَيَقِفَ مَعَ نَفْسِهِ مُحَاسِبًا لَهَا، وَمُتَأَمِّلًا لِمَا مَضَىٰ مِنْ أَمْرِهَا، فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ جَعَلَهَا اللهُ زَاجِرًا، وَهَا هِيَ آلَافُ الْجُثَثِ مَازَالَتْ عَالِقَةً، لَمْ تَجِدْ مَنْ يَصِلُ إِلَيْهَا فَيُكْرِمَهَا، بَعْضُهَا فِي أَعْمَاقِ الْبَحْرِ، وَبَعْضُهَا يَطْفُو فَوْقَ الْمَاءِ فِي أَمَاكِنَ مُتَفَرِّقَةٍ، حَتَّىٰ وَصَلَ بَعْضُهَا إِلَىٰ مُدُنٍ لَمْ يُصِبْهَا الْفَيَضَانُ، وَبَعْضُهَا تَحْتَ الْأَنْقَاضِ، تَعَسَّرَ الْوُصُولُ إِلَيْهَا أَوْ إِيجَادُهَا، وَصَارَتْ رَوَائِحُ الْقَتْلَىٰ تَمْلَأُ الْمَدِينَةَ بِأَكْمَلِهَا، حَتَّىٰ خِيفَ مِنِ انْتِشَارِ الْأَوْبِئَةِ، وَقَدْ يُؤْمَرُ بِإِخْلَائِهَا فِي أَيِّ وَقْتٍ. أَلَيْسَ فِي هَذَا عِبْرَةٌ وَآيَةٌ مِنْ آيَاتِ الْعَزِيزِ الْجَبَّارِ سُبْحَانَهُ؟

«الْفَرْقُ بَيْنَ عُقُوبَاتِ اللهِ لِلْكُفَّارِ، وَعُقُوبَاتِهِ ﷻ لِلْمُسْلِمِينَ»

بَعْضُ الْجَهَلَةِ يُهَوِّنُ مِنْ شَأْنِ عُقُوبَاتِ اللهِ لِأَعْدَائِهِ الْكَفَرَةِ بِمَا يَحْصُلُ لِلْمُسْلِمِينَ، وَهَذَا ضَلَالٌ.

أَمَّا الْكُفَّارُ فَيَأْخُذُهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ وَلِذَلِكَ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ أَنَّهُ أَخَذَ الْأُمَمَ الْكَافِرَةَ السَّابِقَةَ بِالْعَذَابِ عَلَىٰ تَنَوُّعِهِ، بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ، وَالَّذِي أَعْظَمُهَا الْكُفْرُ، حَيْثُ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، وَقَالَ ﷻ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ

بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ﴾.

وَأَمَّا الْمُسْلِمُونَ فَلَيْسَ مَا يُعَاقِبُهُمُ اللهُ بِهِ مُمَاثِلًا لِمَا يُعَاقِبُ بِهِ الْكُفَّارَ بَلْ هُوَ أَهْوَنُ، كَذَلِكَ فِيهِ تَكْفِيرٌ لِسَيِّئَاتِهِمْ، وَتَمْحِيصٌ لَهُمْ، كَمَا أَنَّهُ مَوْعِظَةٌ لَهُمْ وَعِبْرَةٌ، كَذَلِكَ فَإِنَّ فِيهِ الرَّحْمَةَ وَالْخَيْرَ الْكَثِيرَ لِمَا يَحْصُلُ بِسَبَبِهِ، مِنْ تَوْبَتِهِمْ، وَرُجُوعِهِمْ إِلَىٰ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ، بِالِانْكِسَارِ وَالذُّلِّ وَالْخَوْفِ، الَّذِي يَحْجُزُهُمْ عَنِ التَّعَرُّضِ لِسَخَطِ رَبِّهِمْ، وَقَدْ تَقَدَّمَ مِنَ الْأَمْثِلَةِ مَا يُوَضِّحُ هَذَا، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

وَمِمَّا يُبَيِّنُ كَوْنَ مَا يَجْرِي عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْعُقُوبَاتِ مِنَ الزَّلَازِلِ وَنَحْوِهَا يُعْتَبَرُ مِنْ تَكْفِيرِ السَّيِّئَاتِ: مَا أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ، عَنْ أَبِي مُوسَىٰ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أُمَّتِي هَذِهِ أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ، لَيْسَ عَلَيْهَا عَذَابٌ فِي الْآخِرَةِ، عَذَابُهَا فِي الدُّنْيَا، الْفِتَنُ، وَالزَّلَازِلُ، وَالْقَتْلُ». أَمَّا فِي زَمَانِنَا هَذَا، فَلَمْ يَعُدْ فِي الْآيَاتِ الْمَتْلُوَّةِ وَلَا الْمَشْهُودَةِ اعْتِبَارٌ وَلَا ازْدِجَارٌ - إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ -، بَلْ إِنَّ الضَّلَالَ يَزِيدُ إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ، وَمَا الَّذِي يُؤَمِّنُنَا مِنْ عَذَابِ اللهِ، فَلَيْسَ لَنَا الْحُلْوَةُ وَلِلْكُفَّارِ الْمُرَّةُ إِذَا سَلَكْنَا طَرِيقَهُمْ، كَمَا قَالَ ذَلِكَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي كِتَابِهِ «مِفْتَاحِ دَارِ السَّعَادَةِ» (١/ ٢٢١) فِي كَلَامِهِ عَنِ الْجِبَالِ: فَهَذَا حَالُ الْجِبَالِ، وَهِيَ الْحِجَارَةُ الصَّلْبَةُ، وَهَذِهِ رِقَّتُهَا وَخَشْيَتُهَا وَتَدَكْدُكُهَا مِنْ جَلَالِ رَبِّهَا وَعَظَمَتِهِ، وَقَدْ أَخْبَرَ عَنْهَا فَاطِرُهَا وَبَارِيهَا: أَنَّهُ لَوْ أُنْزِلَ عَلَيْهَا كَلَامُهُ لَخَشَعَتْ، وَلَتَصَدَّعَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، فَيَا عَجَبًا مِنْ مُضْغَةِ لَحْمٍ أَقْسَىٰ مِنْ هَذِهِ الْجِبَالِ، تَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهَا وَيُذْكَرُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فَلَا تَلِينُ وَلَا تَخْشَعُ وَلَا تُنِيبُ!، فَلَيْسَ بِمُسْتَنْكَرٍ عَلَىٰ اللهِ ﷻ، وَلَا يُخَالِفُ حِكْمَتَهُ أَنْ يَخْلُقَ لَهَا نَارًا تُذِيبُهَا، إِذْ لَمْ تَلِنْ بِكَلَامِهِ وَذِكْرِهِ وَزَوَاجِرِهِ وَمَوَاعِظِهِ، فَمَنْ لَمْ يَلِنْ لِلَّهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ قَلْبُهُ، وَلَمْ يُنِبْ إِلَيْهِ وَلَمْ يُذِبْهُ بِحُبِّهِ، وَالْبُكَاءِ مِنْ خَشْيَتِهِ، فَلْيَتَمَتَّعْ قَلِيلًا، فَإِنَّ أَمَامَهُ الْمُلَيِّنَ الْأَعْظَمَ [يَعْنِي النَّارَ، نَعُوذُ بِاللهِ مِنْهَا]، وَسَيُرَدُّ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيَرَىٰ وَيَعْلَمُ.

«وَصَايَا وَتَوْجِيهَاتٌ لِإِخْوَانِنَا فِي الْمَغْرِبِ وَلِيبْيَا»

أَيُّهَا الْأُخْوَةُ: إِنَّ الدُّعَاءَ يَنْفَعُ بِإِذْنِ اللهِ فِيمَا لَمْ يَنْزِلْ مِنَ الْبَلَاءِ فَيَدْفَعُهُ، وَفِيمَا نَزَلَ فَيَرْفَعُهُ، أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ، عنِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الدُّعاءَ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ ومِمَّا لَمْ يَنْزِلْ، فَعَلَيْكُمْ عِبادَ اللهِ بِالدُّعاءِ».

وَهَذِهِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ سَبَبًا لِدَفْعِ الْبَلَاءِ قَبْلَ نُزُولِهِ، وَلِرَفْعِهِ بَعْدَ نُزُولِهِ:

السَّبَبُ الْأَوَّلُ: الدُّعَاءُ. أَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ، عَنْ أَبَانَ بْنِ عُثْمَانَ، عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ قَالَ: بِسْمِ اللهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ لَمْ تُصِبْهُ فَجْأَةُ بَلَاءٍ حَتَّىٰ يُصْبِحَ، وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يُصْبِحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ لَمْ تُصِبْهُ فَجْأَةُ بَلَاءٍ حَتَّىٰ يُمْسِيَ». وَقَالَ: فَأَصَابَ أَبَانَ ابْنَ عُثْمَانَ الْفَالِجُ - يَعْنِي الشَّلَلَ - فَجَعَلَ الرَّجُلُ الَّذِي سَمِعَ مِنْهُ الْحَدِيثَ - وَهُوَ: مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ - يَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: مَا لَكَ تَنْظُرُ إِلَيَّ؟! فَوَاللهِ، مَا كَذَبْتُ عَلَىٰ عُثْمَانَ، وَلَا كَذَبَ عُثْمَانُ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَكِنَّ الْيَوْمَ الَّذِي أَصَابَنِي فِيهِ مَا أَصَابَنِي غَضِبْتُ فَنَسِيتُ أَنْ أَقُولَهَا. قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ كَمَا فِي «الْفُتُوحَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ» لِابْنِ عَلَّانَ: هَذَا خَبَرٌ صَحِيحٌ، وَقَوْلٌ صَادِقٌ، عَلِمْنَا دَلِيلَهُ دَلِيلًا وَتَجْرِبَةً، فَإِنِّي مُنْذُ سَمِعْتُهُ عَمِلْتُ بِهِ، فَلَمْ يَضُرَّنِي شَيْءٌ إِلَىٰ أَنْ تَرَكْتُهُ، فَلَدَغَتْنِي عَقْرَبٌ بِالْمَدِينَةِ لَيْلًا، فَتَفَكَّرْتُ، فَإِذَا أَنَا قَدْ نَسِيتُ أَنْ أَتَعَوَّذَ بِتِلْكَ الْكَلِمَاتِ.

الثَّانِي: الْحِفَاظُ عَلَىٰ تَوْحِيدِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَالدَّعْوَةُ إِلَيْهِ، وَالْحَذَرُ وَالتَّحْذِيرُ مِنَ الشِّرْكِ.

قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾، فَإِذَا كَانَ الْكُفَّارُ لَمَّا أَخْلَصُوا الدُّعَاءَ لِلَّهِ أَنْجَاهُمْ، فَكَيْفَ بِالْمُسْلِمِينَ؟!

قَالَ الْعَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «تَفْسِيرِهِ»: أَلْزَمَ تَعَالَىٰ الْمُشْرِكِينَ بِإِخْلَاصِهِمْ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، فِي حَالَةِ الشِّدَّةِ، عِنْدَ رُكُوبِ الْبَحْرِ، وَتَلَاطُمِ أَمْوَاجِهِ، وَخَوْفِهِمُ الْهَلَاكَ، يَتْرُكُونَ إِذًا أَنْدَادَهُمْ، وَيُخْلِصُونَ الدُّعَاءَ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا

شَرِيكَ لَهُ، فَلَمَّا زَالَتْ عَنْهُمُ الشِّدَّةُ، وَنَجَىٰ مَنْ أَخْلَصُوا لَهُ الدُّعَاءَ إِلَىٰ الْبَرِّ، أَشْرَكُوا بِهِ مَنْ لَا نَجَّاهُمْ مِنْ شِدَّةٍ، وَلَا أَزَالَ عَنْهُمْ مَشَقَّةً.

فَهَلَّا أَخْلَصُوا لِلَّهِ الدُّعَاءَ فِي حَالِ الرَّخَاءِ وَالشِّدَّةِ، وَالْيُسْرِ وَالْعُسْرِ، لِيَكُونُوا مُؤْمِنِينَ بِهِ حَقًّا، مُسْتَحِقِّينَ ثَوَابَهُ، مُنْدَفِعًا عَنْهُمْ عِقَابُهُ.

وَلَكِنَّ شِرْكَهُمْ هَذَا بَعْدَ نِعْمَتِنَا عَلَيْهِمْ بِالنَّجَاةِ مِنَ الْبَحْرِ؛ لِيَكُونَ عَاقِبَتُهُ كُفْرَ مَا آتَيْنَاهُمْ، وَمُقَابَلَةَ النِّعْمَةِ بِالْإِسَاءَةِ؛ وَلِيُكْمِلُوا تَمَتُّعَهُمْ فِي الدُّنْيَا، الَّذِي هُوَ كَتَمَتُّعِ الْأَنْعَامِ، لَيْسَ لَهُمْ هَمٌّ إِلَّا بُطُونُهُمْ وَفُرُوجُهُمْ.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ حِينَ يَنْتَقِلُونَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَىٰ الْآخِرَةِ شِدَّةَ الْأَسَفِ، وَأَلِيمَ الْعُقُوبَةِ.

وَقَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ «الْفَوَائِدِ»: فَمَا دُفِعَتْ شَدَائِدُ الدُّنْيَا بِمِثْلِ التَّوْحِيدِ؛ وَلِذَلِكَ كَانَ دُعَاءُ الْكَرْبِ بِالتَّوْحِيدِ، وَدَعْوَةُ ذِي النُّونِ الَّتِي مَا دَعَا بِهَا مَكْرُوبٌ إِلَّا فَرَّجَ اللهُ كَرْبَهُ بِالتَّوْحِيدِ. فَلَا يُلْقِي فِي الْكُرَبِ الْعِظَامِ إِلَّا الشِّرْكُ، وَلَا يُنْجِي مِنْهَا إِلَّا التَّوْحِيدُ، فَهُوَ مَفْزَعُ الْخَلِيقَةِ، وَمَلْجَؤُهَا وَحِصْنُهَا وَغِيَاثُهَا، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ. اهـ

الثَّالِثُ: الْمُحَافَظَةُ عَلَىٰ الْأَذْكَارِ، لَاسِيَّمَا ذِكْرُ الْخُرُوجِ مِنَ الْبَيْتِ.

أَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ فَقَالَ: بِسْمِ اللهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَىٰ اللهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، يُقَالُ حِينَئِذٍ: هُدِيتَ، وَكُفِيتَ، وَوُقِيتَ، فَتَتَنَحَّىٰ لَهُ الشَّيَاطِينُ، فَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانٌ آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ؟».

الرَّابِعُ: صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ. أَخْرَجَ الْحَاكِمُ فِي «مُسْتَدْرَكِهِ»، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ»، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ، وَالْآفَاتِ، وَالْهَلَكَاتِ، وَأَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الدُّنْيَا هُمْ أَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الْآخِرَةِ».

قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «زَادِ الْمَعَادِ»: وَمِنْ أَعْظَمِ عِلَاجَاتِ الْمَرَضِ: فِعْلُ الْخَيْرِ وَالْإِحْسَانِ، وَالذِّكْرُ،

وَالدُّعاءُ، وَالتَّضَرُّعُ، وَالِابْتِهَالُ إِلَىٰ اللهِ، وَالتَّوْبَةُ، وَلِهَذِهِ الْأُمُورِ تَأْثِيرٌ فِي دَفْعِ الْعِلَلِ، وَحُصُولِ الشِّفَاءِ، أَعْظَمُ مِنَ الْأَدْوِيَةِ الطَّبِيعِيَّةِ، وَلَكِنْ بِحَسَبِ اسْتِعْدَادِ النَّفْسِ، وَقَبُولِهَا، وَعَقِيدَتِهَا فِي ذَلِكَ. اهـ

الْخَامِسُ: الْمُحَافَظَةُ عَلَىٰ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، وَخُصُوصًا صَلَاةُ الصُّبْحِ.

أَخْرَجَ مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ عَنْ جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ صَلَّىٰ الصُّبْحَ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللهِ».

السَّادِسُ: الْحِفَاظُ عَلَىٰ دُعَاءِ مَنْ رَأَىٰ مُبْتَلًىٰ.

أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ، وَحَسَّنَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «مَنْ رَأَىٰ مُبْتَلًىٰ فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي مِمَّا ابْتَلَاكَ بِهِ، وَفَضَّلَنِي عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا لَمْ يُصِبْهُ ذَلِكَ الْبَلَاءُ».

السَّابِعُ: قِرَاءَةُ سُورَةِ الْإِخْلَاصِ وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي الصَّبَاحِ وَالْمَسَاءِ.

أَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَحَسَّنَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ، عَنْ خُبَيْبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: خَرَجْنَا فِي لَيْلَةِ مَطَرٍ، وَظُلْمَةٍ شَدِيدَةٍ، نَطْلُبُ رَسُولَ اللهِ ﷺ لِيُصَلِّيَ لَنَا، فَأَدْرَكْنَاهُ، فَقَالَ: «أَصَلَّيْتُمْ؟» فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا، فَقَالَ: «قُلْ»، فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ: «قُلْ»، فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ: «قُلْ»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا أَقُولُ؟ قَالَ: قُلْ: «قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ، وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ حِينَ تُمْسِي، وَحِينَ تُصْبِحُ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ تَكْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ». قَالَ الطِّيبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ كَمَا فِي «مِرْقَاةِ الْمَفَاتِيحِ»: أَيْ: تَدْفَعُ عَنْكَ كُلَّ سُوءٍ.

الثَّامِنُ: قِرَاءَةُ الْآيَتَيْنِ الْأَخِيرَتَيْنِ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ لَيْلًا.

أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ بِالْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ». قَالَ بَدْرُ الدِّينِ الْعِينِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي: «عُمْدَةِ الْقَارِي»: قَوْلُهُ: «كَفَتَاهُ»، أَيْ: عَنْ قِيَامِ اللَّيْلِ، وَقِيلَ: مَا يَكُونُ مِنَ الْآفَاتِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ.

التَّاسِعُ: سُؤَالُ اللهِ الْعَافِيَةَ.

أَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَعُ هَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ حِينَ يُمْسِي وَحِينَ يُصْبِحُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَتِي، وَآمِنْ رَوْعَاتِي، اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي، وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي»، قَالَ الطِّيبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «شَرْحِ الْمِشْكَاةِ»: الْعَافِيَةُ: أَنْ يَسْلَمَ مِنَ الْأَسْقَامِ وَالْبَلَايَا. اهـ

الْعَاشِرُ: التَّعَوُّذُ بِاللهِ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِهِ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِهِ.

أَخْرَجَ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ مِنْ دُعَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ».

قَالَ الطِّيبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ كَمَا فِي «شَرْحِ مِشْكَاةِ الْمَصَابِيحِ»: «وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ»، أَيْ: تَبَدُّلِ مَا رَزَقْتَنِي مِنَ الْعَافِيَةِ إِلَىٰ الْبَلَاءِ وَالدَّاهِيَةِ. اهـ

الْحَادِي عَشَرَ: التَّسْبِيحُ وَالِاسْتِغْفَارُ.

قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، وَقَالَ تَعَالَىٰ عَنْ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾. قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «تَفْسِيرِهِ»: كَانَ مِنَ الذَّاكِرِينَ اللهَ قَبْلَ الْبَلَاءِ، فَذَكَرَهُ اللهُ فِي حَالِ الْبَلَاءِ، فَأَنْقَذَهُ وَنَجَّاهُ. اهـ

وَأَخْرَجَ أَبُو نُعَيْمٍ فِي «حِلْيَةِ الْأَوْلِيَاءِ» عَنِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: لَمْ أَرَ أَنْفَعَ لِلْوَبَاءِ مِنَ التَّسْبِيحِ.

الثَّانِي عَشَرَ: الِاسْتِعَانَةُ بِالصَّلَاةِ عِنْدَ اشْتِدَادِ الْأُمُورِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾. لَقَدْ كَانَتِ الصَّلَاةُ مَفْزَعَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، أَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ، وَحَسَّنَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ، عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّىٰ»، وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ أَحْمَدُ شَاكِرٍ رَحِمَهُ اللهُ، عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: مَا كَانَ فِينَا فَارِسٌ يَوْمَ بَدْرٍ غَيْرُ الْمِقْدَادِ،

وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا فِينَا إِلَّا نَائِمٌ، إِلَّا رَسُولَ اللهِ ﷺ تَحْتَ شَجَرَةٍ يُصَلِّي وَيَبْكِي حَتَّىٰ أَصْبَحَ، وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، حَدَّثَتْنِي هِنْدُ بِنْتُ الْحَارِثِ، أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: اسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «سُبْحَانَ اللهِ! مَاذَا أُنْزِلَ مِنَ الْخَزَائِنِ؟ وَمَاذَا أُنْزِلَ مِنَ الْفِتَنِ؟ مَنْ يُوقِظُ صَوَاحِبَ الْحُجَرِ - يُرِيدُ بِهِ أَزْوَاجَهُ - حَتَّىٰ يُصَلِّينَ؟ رُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا، عَارِيَةٌ فِي الْآخِرَةِ».

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الْفَتْحِ»: وَفِي الْحَدِيثِ اسْتِحْبَابُ الْإِسْرَاعِ إِلَىٰ الصَّلَاةِ عِنْدَ خَشْيَةِ الشَّرِّ. اهـ

أَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرَيْهِمَا»، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ أَحْمَدُ شَاكِرٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي تَحْقِيقِهِ لِتَفْسِيرِ ابْنِ جَرِيرٍ، عَنْ عُيَيْنَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: نُعِيَ إِلَيْهِ أَخُوهُ قُثَمُ وَهُوَ فِي سَفَرٍ، فَاسْتَرْجَعَ، ثُمَّ تَنَحَّىٰ عَنِ الطَّرِيقِ، فَأَنَاخَ، فَصَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ أَطَالَ فِيهِمَا الْجُلُوسَ، ثُمَّ قَامَ يَمْشِي إِلَىٰ رَاحِلَتِهِ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَىٰ الْخَاشِعِينَ﴾.

وَأَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الصَّحِيحَةِ»، عَنْ صُهَيْبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا صَلَّىٰ هَمَسَ شَيْئًا لَا نَفْهَمُهُ وَلَا يُحَدِّثُنَا بِهِ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَطِنْتُمْ لِي؟» قَالَ قَائِلٌ: نَعَمْ. قَالَ: «فَإِنِّي قَدْ ذَكَرْتُ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ أُعْطِيَ جُنُودًا مِنْ قَوْمِهِ، فَقَالَ: مَنْ يُكَافِئُ هَؤُلَاءِ؟ أَوْ مَنْ يَقُومُ لِهَؤُلَاءِ؟ أَوْ كَلِمَةً شَبِيهَةً بِهَذِهِ شَكَّ سُلَيْمَانُ، قَالَ: فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ: اخْتَرْ لِقَوْمِكَ بَيْنَ إِحْدَىٰ ثَلَاثٍ، إِمَّا أَنْ أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، أَوِ الْجُوعَ، أَوِ الْمَوْتَ، قَالَ: فَاسْتَشَارَ قَوْمَهُ فِي ذَلِكَ فَقَالُوا: أَنْتَ نَبِيُّ اللهِ نَكِلُ ذَلِكَ إِلَيْكَ، فَخِرْ لَنَا، قَالَ: فَقَامَ إِلَىٰ صَلَاتِهِ، قَالَ: وَكَانُوا يَفْزَعُونَ إِذَا فَزِعُوا إِلَىٰ الصَّلَاةِ، قَالَ: فَصَلَّىٰ، قَالَ: أَمَّا عَدُوٌّ مِنْ غَيْرِهِمْ فَلَا، أَوِ الْجُوعُ فَلَا، وَلَكِنِ الْمَوْتُ، قَالَ فَسُلِّطَ عَلَيْهِمُ الْمَوْتُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَمَاتَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا، فَهَمْسِي الَّذِي تَرَوْنَ أَنِّي أَقُولُ: اللَّهُمَّ يَا رَبِّ، بِكَ أُقَاتِلُ وَبِكَ أُصَاوِلُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ».

إِنَّ مِنَ الْخُذْلَانِ أَنْ يَشْتَغِلَ الْمُسْلِمُ عَنِ الْعِبَادَةِ، وَيَغْفَلَ عَنِ الِاسْتِعَانَةِ بِالصَّلَاةِ، وَيَسْتَغْرِقَ فِي مُتَابَعَةِ الْقَنَوَاتِ الْمُغْرِضَةِ السَّاعَاتِ الطِّوَالَ، ثُمَّ يَطْفِقُ يَذُمُّ أَهْلَ الْعِلْمِ وَالْفَضْلِ وَالْعِبَادَةِ، مُتَّهِمًا لَهُمْ بِالسَّلْبِيَّةِ.

الثَّالِثَ عَشَرَ: الصَّبْرُ عَلَىٰ ضِيقِ الْمَعَاشِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ.

لَقَدْ كَانَ نَبِيُّنَا ﷺ يَسْتَعِيذُ بِاللهِ مِنَ الْفَقْرِ. أَخْرَجَ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ، وَالْقِلَّةِ، وَالذِّلَّةِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ».

وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو بِهَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ: «اللَّهُمَّ فَإِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ النَّارِ، وَعَذَابِ النَّارِ، وَفِتْنَةِ الْقَبْرِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْغِنَىٰ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْفَقْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْ خَطَايَايَ بِمَاءِ الثَّلْجِ وَالْبَرَدِ، وَنَقِّ قَلْبِي مِنَ الْخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الْأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ، وَبَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، اللَّهُمَّ فَإِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَالْهَرَمِ، وَالْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ».

وَمَعَ ذَلِكَ، فَالْمُؤْمِنُ دَائِمًا يَرْضَىٰ بِمَا قَسَمَ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُ، فَهُوَ رَاضٍ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ.

الرَّابِعَ عَشَرَ: تَنْفِيسُ كُرَبِ الْمَكْرُوبِينَ.

أَخْرَجَ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَىٰ مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ».

قَالَ الْحَافِظُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الْمِنْهَاجِ»: مَعْنَىٰ (نَفَّسَ الْكُرْبَةَ): أَزَالَهَا. وَفِيهِ: فَضْلُ قَضَاءِ حَوَائِجِ الْمُسْلِمِينَ، وَنَفْعُهُمْ بِمَا تَيَسَّرَ مِنْ عِلْمٍ أَوْ مَالٍ، أَوْ مُعَاوَنَةٍ أَوْ إِشَارَةٍ بِمَصْلَحَةٍ أَوْ نَصِيحَةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَفَضْلُ السَّتْرِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ سَبَقَ تَفْصِيلُهُ، وَفَضْلُ إِنْظَارِ الْمُعْسِرِ.

وَأَخْرَجَ الطَّبَرَانِيُّ فِي «مُعْجَمِهِ الْكَبِيرِ»، وَحَسَّنَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الصَّحِيحَةِ»، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ؟ وَأَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَحَبُّ النَّاسِ إِلَىٰ اللهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَىٰ اللهِ سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَىٰ مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلَأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخٍ لِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ

إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ، يَعْنِي مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ، شَهْرًا».

«مِنَ الْأَحْكَامِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِهَذِهِ الْأَحْدَاثِ، مِنَ الزَّلَازِلِ وَالْبَرَاكِينِ وَالْفَيَضَانَاتِ وَالْأَعَاصِيرِ»

الْأَوَّلُ: حُكْمُ الدَّفْنِ الْجَمَاعِيِّ إِذَا كَثُرَتِ الْجُثَثُ.

لَقَدْ وُجِدَ آلَافُ الْجُثَثِ بِسَبَبِ هَذَا الزِّلْزَالِ، وَذَلِكَ الْفَيَضَانِ، وَتِلْكَ الْأَعَاصِيرِ؛ وَلِذَا لَزِمَ مَعْرِفَةُ حُكْمِ الدَّفْنِ الْجَمَاعِيِّ.

وَقَدْ سُئِلَتِ اللَّجْنَةُ الدَّائِمَةُ لِلْبُحُوثِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْإِفْتَاءِ فِي الْفَتْوَىٰ رَقْمِ (١٤٢٩٢):

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنْ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ، وَبَعْدُ:

فَقَدِ اطَّلَعَتِ اللَّجْنَةُ الدَّائِمَةُ لِلْبُحُوثِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْإِفْتَاءِ عَلَىٰ مَا وَرَدَ إِلَىٰ سَمَاحَةِ الْمُفْتِي الْعَامِّ، مِنْ فَضِيلَةِ رَئِيسِ الْمَحْكَمَةِ الْكُبْرَىٰ بِجُدَّةَ، وَالْمُحَالِ إِلَىٰ اللَّجْنَةِ مِنَ الْأَمَانَةِ الْعَامَّةِ لِهَيْئَةِ كِبَارِ الْعُلَمَاءِ، بِرَقْمِ (بِدُونِ) وَتَارِيخِ (بِدُونِ)، وَقَدْ سَأَلَ فَضِيلَتُهُ سُؤَالًا هَذَا نَصُّهُ:

أَرْفَعُ لِسَمَاحَتِكُمْ خِطَابَ سَعَادَةِ الْوَكِيلِ الْمُسَاعِدِ لِلشُّؤُونِ الْبَلَدِيَّةِ بِجُدَّةَ بِرَقْمِ (٤٠٦ وس) وَتَارِيخِ ٧ / ١٠ / ١٤١١هـ، الْمُتَضَمِّنَ اسْتِرْشَادَهُ عَنِ الطَّرِيقَةِ الْمُثْلَىٰ الشَّرْعِيَّةِ لِتَجْهِيزِ وَدَفْنِ الْمَوْتَىٰ، وَذَلِكَ فِي حَالَاتِ الدَّفْنِ الْجَمَاعِيِّ لِلْوَفَيَّاتِ فِي ظُرُوفِ الطَّوَارِئِ، وَلِلْأَهَمِّيَّةِ أَرْجُو أَنْ تَكُونَ الْإِجَابَةُ وَالتَّوْجِيهُ مِنْ سَمَاحَتِكُمْ، فَآمَلُ الْإِفَادَةَ، نَسْأَلُ اللهَ الْحِفْظَ وَالسَّلَامَةَ لِبِلَادِنَا وَبَقِيَّةِ دِيَارِ الْمُسْلِمِينَ، وَلِسَمَاحَتِكُمْ طُولَ الْعُمُرِ، وَحُسْنَ الْعَمَلِ، وَدَوَامَ التَّوْفِيقِ، رَعَاكُمُ اللهُ.

وَبَعْدَ دِرَاسَةِ اللَّجْنَةِ لِلِاسْتِفْتَاءِ، أَجَابَتْ بِأَنَّ الْمَشْرُوعَ أَنْ يُدْفَنَ كُلُّ مَيِّتٍ فِي حُفْرَةٍ وَحْدَهُ، وَهَذَا مَا دَرَجَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ اتِّبَاعًا لِهَدْيِ نَبِيِّهِمْ ﷺ، وَأَمَّا فِي حَالَاتِ الضَّرُورَةِ عِنْدَ حُصُولِ الْحُرُوبِ، أَوِ الْأَوْبِئَةِ، وَتَكَاثُرِ الْقَتْلَىٰ، وَوُجُودِ الْمَشَقَّةِ عِنْدَ حَفْرِ قَبْرٍ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُتَوَفَّيْنِ فَإِنَّهُ يَجُوزُ جَمْعُ أَكْثَرَ مِنْ مَيِّتٍ فِي قَبْرٍ وَاحِدٍ لِلضَّرُورَةِ، فَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ وَالثَّلَاثَةِ مِنْ قَتْلَىٰ أُحُدٍ فِي قَبْرٍ وَاحِدٍ، وَيُقَدِّمُ

أَكْثَرَهُمْ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ إِلَىٰ جِهَةِ الْقِبْلَةِ، وَفِي «الْمُسْنَدِ» وَ «السُّنَنِ»: أَنَّ الْأَنْصَارَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جَاءَتْ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ فَقَالُوا: أَصَابَنَا قَرْحٌ وَجَهْدٌ فَكَيْفَ تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: «احْفِرُوا وَأَوْسِعُوا، وَاجْعَلُوا الرَّجُلَيْنِ وَالثَّلَاثَةَ فِي الْقَبْرِ، وَقَدِّمُوا أَكْثَرَهُمْ قُرْآنًا»، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ، وَصَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

اللَّجْنَةُ الدَّائِمَةُ لِلْبُحُوثِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْإِفْتَاءِ

عُضْوٌ	نَائِبُ الرَّئِيسِ	الرَّئِيسُ
عَبْدُ اللهِ بْنُ غُدَيَّان	عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَفِيفِيّ	عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ بَازٍ

الثَّانِي: تَذَكُّرُ نِعْمَةِ اللهِ تَعَالَىٰ فِي ثَبَاتِ الْأَرْضِ، وَشُكْرُهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْهَا.

فَمِنْ نِعَمِ اللهِ تعالىٰ الْعَظِيمَةِ عَلَىٰ عِبَادِهِ، وَالَّتِي يَغْفُلُ عَنْهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: نِعْمَةُ ثَبَاتِ الْأَرْضِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [غَافِرٌ: ٦٤]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النَّمْلُ:٦١]. قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي «تَفْسِيرِهِ» (١/ ٢٠٣): أَيْ: قَارَّةً سَاكِنَةً ثَابِتَةً، لَا تَمِيدُ وَلَا تَتَحَرَّكُ بِأَهْلِهَا، وَلَا تَرْجُفُ بِهِمْ، فَإِنَّهَا لَوْ كَانَتْ كَذَلِكَ لَمَا طَابَ عَلَيْهَا الْعَيْشُ وَالْحَيَاةُ، بَلْ جَعَلَهَا مِنْ فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ مِهَادًا بِسَاطًا ثَابِتَةً، لَا تَتَزَلْزَلُ وَلَا تَتَحَرَّكُ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ: ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [غَافِرٌ: ٦٤].

وَاللهُ سُبْحَانَهُ يَبْتَلِي عِبَادَهُ بِالزَّلَازِلِ وَالْبَرَاكِينِ؛ لِيُذَكِّرَهُمْ بِنِعْمَةِ ثَبَاتِ الْأَرْضِ، وَبَسْطِهَا وَتَسْوِيَتِهَا، وَتَمْهِيدِهَا لِاسْتِقْرَارِ الْخَلَائِقِ عَلَىٰ ظَهْرِهَا، وَالتَّمَكُّنِ مِنْ حَرْثِهَا وَغِرَاسِهَا، وَالْبُنْيَانِ عَلَيْهَا، وَالِانْتِفَاعِ بِمَا فِيهَا مِنْ خَيْرَاتٍ :﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النَّبَأُ: ٦، ٧]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ:﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الْغَاشِيَةُ: ٢٠].

قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي «مِفْتَاحِ دَارِ السَّعَادَةِ» (١/ ٢١٧، ٢١٨): وتَأَمَّلْ خَلْقَ الْأَرْضِ عَلَىٰ مَا هِيَ عَلَيْهِ، حِينَ خُلِقَتْ وَاقِفَةً سَاكِنَةً؛ لِتَكُونَ مِهَادًا، وَمُسْتَقَرًّا لِلْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ وَالْأَمْتِعَةِ، وَيَتَمَكَّنُ الْحَيَوَانُ وَالنَّاسُ مِنَ السَّعْيِ عَلَيْهَا فِي مَآرِبِهِمْ، وَالْجُلُوسِ لِرَاحَاتِهِمْ، وَالنَّوْمِ لِهُدُوئِهِمْ، وَالتَّمَكُّنِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ. وَلَوْ كَانَتْ رَجْرَاجَةً مُتَمَايِلَةً لَمْ يَسْتَطِيعُوا عَلَىٰ ظَهْرِهَا قَرَارًا وَلَا هُدُوءًا، وَلَا ثَبَتَ لَهُمْ عَلَيْهَا بِنَاءٌ، وَلَا أَمْكَنَهُمْ عَلَيْهَا صِنَاعَةٌ، وَلَا تِجَارَةٌ، وَلَا حِرَاثَةٌ، وَلَا مَصْلَحَةٌ، وَكَيْفَ كَانُوا يَتَهَنَّونَ بِالْعَيْشِ وَالْأَرْضُ تَرْتَجُّ مِنْ تَحْتِهِمْ؟! وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِمَا يُصِيبُهُمْ مِنَ الزَّلَازِلِ، عَلَىٰ قِلَّةِ مُكْثِهَا، كَيْفَ تُصَيِّرُهُمْ إِلَىٰ تَرْكِ مَنَازِلِهِمْ، والْهَرَبِ عَنْهَا؟!.

الثَّالِثُ: تَذَكُّرُ زَلْزَلَةِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَهَذِهِ الزَّلَازِلُ الَّتِي تَقَعُ فِي الدُّنْيَا تُذَكِّرُنَا بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَأَهْوَالِ الْآخِرَةِ، فَهِيَ مِنْ أَشْرَاطِهَا، وَتُذَكِّرُ بِهَا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَىٰ النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾.

الرَّابِعُ: تَأَمُّلُ الْحِكْمَةِ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ، مَعَ التَّوْبَةِ وَالرُّجُوعِ إِلَىٰ اللهِ.

وَمِنْ حِكَمِ الزَّلَازِلِ وَالْبَرَاكِينِ، وَالْعَوَاصِفِ وَالْفَيَضَانَاتِ أَنَّهَا آيَاتٌ يُخَوِّفُ اللهُ بِهَا عِبَادَهُ، حَتَّىٰ يَرْجِعُوا إِلَيْهِ وَيَتُوبُوا، وَيُقْلِعُوا عَنِ الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٥٩].

وَيُسْتَحَبُّ عِنْدَ وُقُوعِ الزَّلَازِلِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ التَّضَرُّعُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، وَالْإِنَابَةُ إِلَيْهِ، وَالْإِقْلَاعُ عَنِ الْمَعَاصِي، وَالْمُبَادَرَةُ إِلَىٰ التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ، وَالْإِلْحَاحُ إِلَيْهِ بِالدُّعَاءِ، وَالذِّكْرِ، وَالصَّدَقَةِ، وَغَيْرِهَا مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي يُسْتَدْفَعُ بِهِ الْعَذَابُ وَالنِّقَمُ، قَالَ تَعَالَىٰ :﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الْأَنْعَامُ: ٤٣].

قَالَ سَمَاحَةُ شَيْخِنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ بَازٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي «مَجْمُوعِ فَتَاوَىٰ وَمَقَالَاتِ سَمَاحَةِ الشَّيْخِ ابْنِ بَازٍ

رَحِمَهُ اللَّهُ» (٩/ ١٤٨- ١٥٢): الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحَابَتِهِ وَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاهُ، أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حَكِيمٌ عَلِيمٌ فِيمَا يَقْضِيهِ وَيُقَدِّرُهُ، كَمَا أَنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ فِيمَا شَرَعَهُ وَأَمَرَ بِهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ مِنَ الْآيَاتِ، وَيُقَدِّرُهَا تَخْوِيفًا لِعِبَادِهِ، وَتَذْكِيرًا لَهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّهِ، وَتَحْذِيرًا لَهُمْ مِنَ الشِّرْكِ بِهِ، وَمُخَالَفَةِ أَمْرِهِ وَارْتِكَابِ نَهْيِهِ، كَمَا قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾، وَقَالَ ﷻ: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ الْآيَةِ.

وَرَوَىٰ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَمَّا نَزَلَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ، قَالَ: قَالَ: أَعُوذُ بِوَجْهِكَ». وَرَوَىٰ أَبُو الشَّيْخِ الْأَصْبَهَانِيُّ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ قَالَ: الصَّيْحَةُ وَالْحِجَارَةُ وَالرِّيحُ. ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قَالَ: الرَّجْفَةُ وَالْخَسْفُ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ مَا حَصَلَ مِنَ الزَّلَازِلِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ فِي جِهَاتٍ كَثِيرَةٍ هُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْآيَاتِ الَّتِي يُخَوِّفُ اللهُ بِهَا سُبحانه عِبَادَهُ، وَكُلُّ مَا يَحْدُثُ فِي الْوُجُودِ مِنَ الزَّلَازِلِ وَغَيْرِهَا مِمَّا يَضُرُّ الْعِبَادَ، وَيُسَبِّبُ لَهُمْ أَنْوَاعًا مِنَ الْأَذَىٰ، كُلُّهُ بِأَسْبَابِ الشِّرْكِ وَالْمَعَاصِي، كَمَا قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾، وَقَالَ تَعَالَىٰ عَنِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

فَالْوَاجِبُ عَلَىٰ جَمِيعِ الْمُكَلَّفِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمُ التَّوْبَةُ إِلَىٰ اللهِ سُبْحَانَهُ، وَالِاسْتِقَامَةُ عَلَىٰ دِينِهِ، وَالْحَذَرُ مِنْ كُلِّ مَا نَهَىٰ عَنْهُ مِنَ الشِّرْكِ وَالْمَعَاصِي، حَتَّىٰ تَحْصُلَ لَهُمُ الْعَافِيَةُ وَالنَّجَاةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ

جَمِيعِ الشُّرُورِ، وَحَتَّىٰ يَدْفَعَ اللهُ عَنْهُمْ كُلَّ بَلَاءٍ، وَيَمْنَحَهُمْ كُلَّ خَيْرٍ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، وَقَالَ تَعَالَىٰ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

وَقَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ مَا نَصُّهُ: وَقَدْ يَأْذَنُ اللهُ سُبْحَانَهُ لِلْأَرْضِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ بِالتَّنَفُّسِ، فَتَحْدُثُ فِيهَا الزَّلَازِلُ الْعِظَامُ، فَيَحْدُثُ مِنْ ذَلِكَ لِعِبَادِهِ الْخَوْفُ وَالْخَشْيَةُ، وَالْإِنَابَةُ وَالْإِقْلَاعُ عَنِ الْمَعَاصِي، وَالتَّضَرُّعُ إِلَىٰ اللهِ سُبْحَانَهُ، وَالنَّدَمُ، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ، وَقَدْ زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ: إِنَّ رَبَّكُمْ يَسْتَعْتِبُكُمْ.

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَقَدْ زُلْزِلَتِ الْمَدِينَةُ، فَخَطَبَهُمْ وَوَعَظَهُمْ، وَقَالَ: لَئِنْ عَادَتْ لَا أُسَاكِنُكُمْ فِيهَا.

وَالْآثَارُ فِي هَذَا الْمُقَامِ عَنِ السَّلَفِ كَثِيرَةٌ.

فَالْوَاجِبُ عِنْدَ الزَّلَازِلِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْآيَاتِ وَالْكُسُوفِ وَالرِّيَاحِ الشَّدِيدَةِ وَالْفَيَضَانَاتِ الْبِدَارُ بِالتَّوْبَةِ إِلَىٰ اللهِ سُبْحَانَهُ، وَالضَّرَاعَةُ إِلَيْهِ، وَسُؤَالُهُ الْعَافِيَةَ، وَالْإِكْثَارُ مِنْ ذِكْرِهِ وَاسْتِغْفَارِهِ، كَمَا قَالَ ﷺ عِنْدَ الْكُسُوفِ: «فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَافْزَعُوا إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ وَدُعَائِهِ وَاسْتِغْفَارِهِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وَيُسْتَحَبُّ أَيْضًا رَحْمَةُ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ، وَالصَّدَقَةُ عَلَيْهِمْ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «ارْحَمُوا تُرْحَمُوا » رَوَاهُ أَحْمَدُ، «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَوْلِهِ ﷺ: « مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، وَرُوِيَ عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ كَانَ يَكْتُبُ إِلَىٰ أُمَرَائِهِ عِنْدَ وُجُودِ الزَّلْزَلَةِ أَنْ يَتَصَدَّقُوا.

وَمِنْ أَسْبَابِ الْعَافِيَةِ وَالسَّلَامَةِ مِنْ كُلِّ سُوءٍ: مُبَادَرَةُ وُلَاةِ الْأُمُورِ بِالْأَخْذِ عَلَىٰ أَيْدِي السُّفَهَاءِ، وَإِلْزَامِهِمْ بِالْحَقِّ، وَتَحْكِيمِ شَرْعِ اللهِ فِيهِمْ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، كَمَا قَالَ ﷻ ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التَّوْبَةُ:٧١]، وَقَالَ ﷻ: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ

مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الْحَجُّ:٤٠،٤١]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَىٰ اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطَّلَاقُ:٢،٣]. وَالْآيَاتُ فِي هَذَا الْمَعْنَىٰ كَثِيرَةٌ.

الْخَامِسُ: الْحَذَرُ مِنْ نَشْرِ الْإِشَاعَاتِ، وَإِرْعَابِ النَّاسِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

فَالْوَاجِبُ التَّثَبُّتُ، وَعَدَمُ نَشْرِ الْإِشَاعَاتِ، بَلِ الرُّجُوعُ إِلَىٰ الْمَصَادِرِ الْمَوْثُوقَةِ.

وَأَسْأَلُ اللهَ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ، وَصِفَاتِهِ الْعُلَىٰ، أَنْ يَحْفَظَ إِخْوَانَنَا فِي الْمَغْرِبِ وَلِيبْيَا، وَأَنْ يَكْتُبَ لِمَنْ مَاتَ مِنْهُمْ أَجْرَ الشُّهَدَاءِ، وَأَنْ يَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ، وَأَنْ يُؤَمِّنَهُمْ فِي أَوْطَانِهِمْ. وَأَنْ يُبَدِّلَ خَوْفَهُمْ أَمْنًا، وَحُزْنَهُمْ فَرَحًا، وَجُوعَهُمْ شِبَعًا، وَعَطَشَهُمْ رِيًّا، اللَّهُمَّ اجْزِ خَيْرًا كُلَّ مَنْ عَاوَنَهُمْ مَعْنَوِيًا وَحِسِّيًا، وَاحْفَظْ وُلَاةَ أُمُورِنَا، وَشَكَرَ اللهُ لَهُمْ مَوْقِفَهُمُ الْمُشَرِّفَ.

اللَّهُمَّ اجْمَعْ كَلِمَةَ إِخْوَانِنَا فِي هَذَيْنِ الْبَلَدَيْنِ عَلَىٰ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَوَحِّدْ صَفَّهُمْ، وَرُدَّ كَيْدَ الْأَعْدَاءِ مِنَ الدَّاخِلِ وَالْخَارِجِ. إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَصَلِّ اللَّهُمَّ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلِّمْ.

كَتَبَهُ

عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ مُوسَىٰ